حول "الشعر والقومية العربية"

"لوحة" الشعر العربي الحديث

بقلم ابراهيم العريض

قرأت في اثناء مطالعاتي رأيا غريبا للكاتب الغربي « البرت هيوبارد » هو قوله : « قلما يكتب الادباء ما يفكرون . كل ما هناك انهم يلتزمون في الكتابة ـ من الاراء ـ ما يتوقعه منهم الناس » . هذا ما يقرره هذا الغربي في اغلبية الادباء.

وانا اذ تتاح لي هذه الفرصة السعيدة في مؤتمرنا الثالث للمداولة معكم في بعض قضايانا المعلقة قد لا اكون ـ ولا يسرني ان اكون ـ من هؤلاء الذين نددَ الكاتب بهم ... ان حقا او باطلا . فلست ملتزما في كلمتي هذه ما ينعى الكاتب من مجرد ترديد لما يتوقع في مثل هذا المقام من الكلمات والافكار . وانما أعدكم وعد حر بأني سأحاول ان اكون عند حسن ظنكم بي ـ جهد المستطاع ـ وكل املي ايضا ان تكونوا عند حسن ظني بكم .وسيكون سبيلي الى ذلك اخلاصي لنفسي ولكم وللايام التي جمعت بيني وبينكم .فلا احدثكم الا بما اؤمن به ايمانا مبعثه طول المعاناة والاختبار . وأرجو الا يكون مجرد مطابقتها لبعض ما تؤمنون به معي او كله ـ كما يقرر الكاتب الغربي ـ مبررا لاتهامي بمسايرتكم او ممالأتكم او محض التزام مني لعرض ما تتوقعون من الوافدين امثالي بسابق اصرار . فذلك ابعد الاشياء عن نيتي السماح لنفسي بعمله في هذا الحفل القومي الكريم . الا ان يكون اعزازا للحق وأهله والحقيقة وحماية مشاعلها ما اضاء بذكرهم افق الحديث واستنارت بشعلتها الشعاب .

ان الموضوع الذي نيط بي امر التحدث فيه هو « الشعر والقومية العربية » ولي ملاحظة على العنوان سأبديها بعد . فهو اذن ذو عارضين الشعر من جهة والقومية ـ قوميتنا نحن ـ من جهة ثانية .

فأما القومية العربية التي كلنا نعتز بها ، وان لم يكن بعض مفكرينا ورجال الحكم فينا ـ كما يظهر ـ على بينة من امرها ـ (ورحم اللهالمتنبي فكأنما كان ينظر من وراء حجب الغيب الى هؤلاء حين انشد منذ الف عام او اكثر .

وكيف يصح في الافهام شيء اذا احتاج النهار الى دليل)

اقول فأما هذه القومية فليست موضع الخلاف من ناحية واقعنا العربي. مهما اختلف في تفسير آيتها وتحليلها الى عناصرها واستكناه وقائعها عند غيرنا من الامم علماء الاجتماع ـ فيما بينهم ـ او المؤرخون . وذلك لاننا نشعر بها جميعا ، ونشعر بها فردا فردا ، ونشعر بها صغارا وكبارا . ونشعر بها نساء ورجالا ، من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ـ شعورنا بأرواحنا في اعمق اعماقنا . وحسبنا من جوهر القومية ذلك بعد ان صهرتها وصهرتنا معها بنيرانها المطهرة احداث الزمان .

هذا من جهة قوميتنا التي افضل ان اترك امر تعريفها علميا والتبسط في شرحها الى زملائي الكرام في المؤتمر ممن هم اطول باعا مني واكثر اطلاعا بشئون السياسة والتاريخ . واني على يقين بأنا سنسمع منهم في هذه القاعة المدوية عنها وعن اثرها العتيد في حياتنا ما يوفى على الغاية ويفي بالمراد .

واما الشعر ـ وهو الذي يطيب لي الحديث فيه ـ فلا اعتقد انه يشك احد منكم كذلك بانه الفرع المنور بأزهاره من دوحة الادب الفارعة ـ او كان كذلك على الاقل حتى امس القريب . وستلمون مني بوجه العذر قريبا في هذا الاستثناء . فلا يمكن اذن ان نعرف قيمة هذا الفرع من فروع الادب وقدره بالنسبة الى دوحة الادب الام ولمقام الشعر والشعر القومي منه بصورة خاصة بين آثار الادب عموما الا اذا حاولنا ان نعرف ماهية الادب بوجه عام ومهمته على وجه التدقيق ، حاولنا ان نعرف ذلك لا عندنا فحسب بل بين امم الارض قاطبة ، لما يحتفل به الادب ـ شعره ونثره ـ في كل بقعة وتحت كل سماء من معنى انساني عام يتخطى التخوم والحدود .

فما هو الادب اولا ؟

ان الادب عندي ـ وارجوكم عدم المؤاخذة على استعمال كلمة « عندي » هذه ، فهي على الاقل تجنبني تهمة اطلاق القول على رسله وتحملني وحدي نتيجة الخطأ في التعريف ان كان ثمة خطأ ـ اقول الادب عندي كما سبق ان قررت مرارا في بحوثي السابقة : مظهر من مظاهر احتفالنا بالحياة .

ـ الاحتفال بحياتنا ـ فتلك هي الغاية التي تستهدفها ببنيها الحياة وفي سبيلها يعيش الاحياء ويموتون ـ رضوا أم كرهوا ـ لا في سبيل انفسهم . وانما يختلف مظهر هذا الاحتفال في المجتمع البشري لاختلاف ظروفه واحواله ـ من عصر الى عصر ـ على تعاقب العصور اما في الادب ـ الذي هو مرآة الحياة في كل عصر ـ فينعكس هذا الاحتفال في « التعبير » عن العلاقات القائمة ابدا بين ذاتين ـ انا وانت ـ الذات التي تسوق الحديث والذات التي يتوجه اليها الحديث . وانما يمد الموضوع ـ اي موضوع ـ يمد سببا لا اكثر ولا اقل ـ للجمع بينهما على مسرح واحد هو ذلك الذي اتخذته الحياة لتمثيل ادوارها . فلئن كان الموضوع هوما نحاول تقريره فان«الذاتية» المزدوجةفيههي دافعنا الخاص علىالتقرير. اذ هي التي تطبع الاثر الادبي بطابعها الخاص فتجعل له بالقول الملفوظ

هذا المبنى في الصياغة ، وبالاثر الملحوظ ذاك المنحى في التعبير .

ولذلك فان مدلول الصدق في الاثر الادبي ليس في مجرد مطابقته للوقائع الخارجية فذاك من اختصاص العلوم تقررها بلغة الرياضة او المنطق . وانما على قدر مطابقته ـ وراء ذلك ـ للاحوال التي تتقلب فيها كل من الذاتين . فهذا ما كان يشير اليه الجاحظ عندما اشترط في الادب الصحيح مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وعن هذا منشأ كل ما نرى من اختلاف الاساليب .

ويجب ان نحتاط فلا ننسى هنا ان الذات التي هي « انت » ليست دائما ذاته مفردة يوجه اليها حوار خاص فيكون الحديث عندئذ مهموسا ، وانما تتعدد الى اكثر من ذات ، من اثنتين فصاعدا الى ما لا حصر له . تربط الذات المتكلمة بهم رابطة ود او ولاء او عشرة او زمالة او جوار فيتنوع لذلك اسلوب الخطاب ، في داخل جماعة تختلف سعة وامتدادا من الاسرة الى العشيرة الى القبيلة الى الشعب الى الامة الى الانسانية برمتها ... وربما عادت ذات الاديب احيانا هي التي يسارها الاديب بحديثه المهموس فيكون ذلك منه في ذاته نجوى نفسية خالصة . نرى شواهده في هذا الشعر الصامت الذي تطور اليه الشعر عند الرمزيين . وهذا يصدق على الذات المتكلمة ايضا . فقد تتحدث بلسان حال الامة كلها لا بلسان صاحبها وحده .. كما يقع دائما في الشعر القومي .

وما دام ميزان تقويم الادب هو « حسن » التعبير عن العلاقات القائمة ابدا بين « انا » و « انت » فان الادب يبلغ ذروته في الاحسان اذا وفق في المزاوجة بين عنصري اللون والنغم ـ اي التصوير والموسيقى . ولا يتم له هذا على وجهه الاكمل الا في لغة الشعر .

ان لي عند كل نفحة ريحان من الفـــل او من الياسمينا

نظرة والتفاتـــة اترجى ان تكوني حللت فيما يلينـا

فهذا ما يميز الشعر كفرع مزهر بين فروع الدوحة الكبرى .

يصح لنا في ضوء ما تقدم ان نقول في تعريف الشعر والشعر الغنائي منه بشكل خاص بانه حل وتركيب لانفعالات الشاعر في اطار موسيقي . يوحي باجوائها للسامع ـ من جهة ـ تآلف الالفاظ على «نحو» موقع تسيفه طبيعة اللغة (اكرر هذه العبارة على نحو موقع تسيفه طبيعة اللغة) ، لتتخايل في ذهن السامع نفسه بحكم ما لهذه الالفاظ من دلالة رمزيـة من جهة ثانية تلك الاخيلة التي تزيد هذه الانفعالات تمكينا . بحيث تتضافر الموسيقى والاخيلة معا ـ اولا واخيرا ـ لتعدينا من جديد بمـا سبق للشاعر من تجاربه الشعورية ... « تطربنا » كلما عاودناها .

وهكذا يبقى الادب مظهرا من مظاهر احتفالنا بالحياة في كافة اطوارها. ويظل الشعر ـ كفن ـ اجمل سجل لماجريات هذا الاحتفال . واي هدف هدف للفنان اجمل ـ كما يقول الكاتب الاردني سليمان موسى في ختام تقريظة لديوان « وجدتها » لشاعرة العرب الانسة فدوى طوقان (١) ـ اي هدف للفنان اجمل من ان يعبر بفنه عن جمال هذه الحياة ويزيد حبنا لها ؟ »

*

لعل بعضكم تساءل في حينه لماذا في تركيبتي للشعر عند تعريفي اياه احتطت بعض الاحتياط بين قديمه وحديثه . فلم اتجاوز في التعريف العام امسه . فهل دالت دولة الشعر حقا ؟ كما اصبح يعتقد جمهرة قراء الصحف عندنا ؟ ولم يعد له ذلك الاعتبار الذي نعم به طوال العصور ؟

واتدارك فاقول ان حكم رجل الشاعر هذا في الشعر وما ينشر كشعر ـ وان عازه البرهان ـ لم يعد مقصورا على دائرة قراء الصحف ـ مثقفين او غير مثقفين ـ فحسب . ولا مستهدفا الشعر الحديث وحده . بل اخذت تتعرض لتياره مذاهب الشعر خارج العالم العربي في كل مكان . وتتداول في المدارس النقدية هناك اكثر مـن تداولها هنا ـ داخل عالمنـا العربي ـ بالنقد والتجريح .

على ان الدليل المادي الملموس الذي لا يمكن دحضه على اعراض الناس عن الشعر مطلقا هو انه اذا طبع لبعض الروائيين او القصصيين في اميركا او اوربا مثلا كتاب قصص فجاوز عدد المطبوع منه ـ بفضل تصريفه ـ عشرات الملايين من النسخ ، فلا يبلغ عدد ما يطبع من اي الدواويـن الشعرية مهما بلغ اصحابها من الشهرة والشيوع لدى الجماهير التـي تحسن الانكليزية ـ وقد اخترت اللغة لانكليزية لضرب المثل عامدا فلم اقل الجمهور الاميركي ـ لا يبلغ غير بضعة الاف من النسخ تطبع على نفقة صاحبها لتوزيعها في معظم الاحوال بين معارفه . هذا عندهم ... وربما لا يختلف الحال عندنا الا في تضاؤل العدد اكثر فاكثر ونكوصه الـى مستوى ادنى واوحش لا تصح معها المقارنة بيننا وبينهم الا نسبيا .

فما تعليل ذلك ؟

ربما كانت هناك اكثر من علة واحدة ـ متشابهة او غير متشابهة ـ تضافرت على خلق مثل هذا الوضع عندنا وعندهم . غير اني لا ابعد كثيرا عن واقع الحال اذا قلت ان علة العلل في كل ما نشاهده من اثار شبح هذه النكسة في الشعر الحديث في جميع انحاء المعمورة يعود ـ اولا باول ـ الى هذه الخطورة الجبارة التي يحاول الشعراء الجدد ـ منذ جيل

(١) مجلة الآداب اللبنانية في عددها الاخير

او اقل قليلا ـ ان يخطوها . بلا سابقة من تاريخ البشر الطويل تأخذ بيدهم وتهديهم سواء السبيل . ان هذه الخطوة في المجهول لجبارة حقا وهي الرامية الى جعل فن التعبير الشعري يتجاوز ـ من الناحية الجغرافية ـ نطاق قومية بني جلدتهم ـ عربا كانوا او غير عرب ـ بمعناها القومي الضيق الى اوسع آفاقها . ولذلك لم تعد الاساليب القديمة التي الفها الناس والفتهم عبر العصور كافية ولا وافية لخدمة هذا الوعي الانساني الجديد البالغ في الشعر اليوم حده من الشمول ـ واصبح لزاما على الشعراء اذا كانوا مخلصين لرسالتهم وانهم لكذلك ـ ان يستحدثوا اسلوبا في التعبير جديدا يشترك في فهمه لا ابناء اللغة الواحدة وحدهم ، بل ـ اذا امكن ـ ابناء اللغات جميعا ما اسعفته الترجمة العاجلة بالنقل من لغة الى لغة .

فنستطيع القول على ضوء ما تقدم ان شعراءنا الجدد ـ كغيرهم من ابناء اللغات ـ شرقا وغربا ـ يحاولون في كل ما ظهر حتى الان من تجاربهم التي لم تصقلها الايام بعد ولا اكسبتها المرونة الفنية التي لا غنى عنها في كل فن ، يحاولون ان يستحدثوا لهم اسلوبا جديدا في اللغة العربية كما الفه غير العرب . وينظمون في قضايا وشئون لا تخص العرب كامة وحدهم بل تحتضن امم البسيطة كلها . فهذا ما قد هب له في الصين مثل شاعر الصين او في الاسبان شاعر الاسبان . وكذلك يحاول ان يفعل الشاعر العربي في مصر وسوريا والعراق .

ان ما يهدف اليه شعراؤنا الجدد سام ولا ريب . انه ـ ان شئتم ـ بالغ حده من السمو . ولكن .. ولا بد من « لكن » هذه والا تركنا جانبا كبيرا من وجه محاولتهم مظلما كمثل ذلك الجانب من طالع القمر الذي لا تراه العين ... قلت ولكن اذا شاء الشعر ان يبقى فنا تعبيريا كسائر الفنون الجميلة وانه لكذلك فعلى الشاعر الا يتنكر ابدا لكيان امته المستقل ـ من الناحية التاريخية حسب محلها في رابطة الامم . بما لامته من شخصية تاريخية عتيدة يستطيع المؤرخ في اي وقت تلمس جذورها في تربة ادبها القديم . شخصية ذات طابع اجتماعي خاص ينفرد بها مجتمع الشاعر دون سواه بين المجتمعات البشرية وكما تظهر ملامحها واضحة للفنان اي ساعة من الزمان في مرآة ادبها المأثور .

فهذا ما فعله المتنبي مثلا عندما اشاد بالعروبة كما وعاها في عصره البطولي فأنشد في مدائح معاصري سيف الدولة ـ البطل العربي ـ قوله (ولا اذكر انه مر بي في شرح معنى القومية العربية قول اصدق منه ولا اصفى . قال شاعر العرب) :

قوم ... بلوغ الفلام عندهمو ... طعن نحور الكماة ، لا الحلم
كانما يولد الندى معهم ... لا صغر عاذر ولا هرم
اذا تولوا عداوة كشفوا ... وان تولوا صنيعة كتموا
تظن من فقدك اعتدادهمو ... انهمو انعموا وما علموا
ان برقوا فالحتوف حاضرة ... او نطقوا فالصواب والحكم
او حلفوا بالغموس واجتهدوا ... فقولهم « خاب سائلي » القسم
او ركبوا الخيل غير مسرجة ... فان افخاذهم لها حزم
او شهدوا الحرب لافحا اخذوا ... من مهج الدارعين ما احتكموا
تشرق اعراضهم واوجههم ... كانها في نفوسهم شيم

ثم يحن الشاعر على هؤلاء حنين الابل على حوارها .

اعيذكم من صروف دهركمو ... فانه في الكرام متهم

فما اشبه الليلة بالبارحة ...

لا بد للشاعر اذن ان يتكفل ذلك ويضمنه ـ قبل كل شيء ـ ليستطيع التحدث الى ابناء امم العالم : لسان امته مستوثقا مطمئنا . والا كان دوره على مسرح ادبها بين الاداب العالمية مفتعلا . لان الشاعر آنذاك وقد بتر كل ما له ولابناء امته من صلات ووشائج بماضيها الزاهر الذي تتفرد به يعتمد لا على ادبها الخاص ولا على هدفها الخاص في اعمالها الوطنية ولا على روحها الخاص في تقاليدها المنسية . وانما على عامل بسيط واحد هو شعوره ووجدانه . فاذا به يضرب بكل ما عداهما عرض الحائط غير قاصد . وهل يسعه غير ذلك وقصارى همه انه يشترك في هذين كانسان مع كل انسان سواه . فانى له ان يلم بكيان امته المستقل بين الامم؟ وهذا لو تاملنا عود بالشعر من بعض وجوهه الى سيرته الاولى في بعض ما اثر عنه من اساليبه المأثورة ولا يستلزم من حامليه كل هذا المخاض .

من هنا هذه الفوضى الضاربة اطنابها حول معنى « الشعر » في العصر الحديث .

*

تلك اذن هي مشكلة الشعر الحديث لا الشعر العربي وحده .

وهذا هو عذري اني عندما اخذت في اعداد كلمتي حول موضوع البحث كما هو مقترح امامكم ترددت طويلا وبدا لي تبديل العنوان . اذ كنت ولا زلت اعتقد ان المشكلة ـ كما هي ـ يمكن استجلاؤها بوضوح اكثر تحت عنوان « الشعر العربي والقومية » ... لا كما هو مطروح على بساط البحث « الشعر والقومية العربية » . لان كلمة « القومية » باطلاقها تعني ـ فيما تعني ـ هذه اليقظة الشاملة التي تناشد بها الامم الان في كل بقاع الارض . كما ظهر اثرها في مؤتمر باندونغ مثلا بينما كلمة

١ ـ هذا الجسد في اخطر قضاياه الدكتور استاش تشاسر ١٠٠
٢ ـ هذا الحب واثره في العلاقات الجنسية الموفقة « « ١٠٠
٣ ـ العروس في مخدع الحب الدكتور جورج كورستال ١٠٠
٤ ـ العريس في مخدع الحب « « « ١٠٠
٥ ـ على ابواب الزواج لينورا اليس ١٥٠
منشورات مكتبة اعارف في بيروت

« الشعر » على اطلاقه تعني الا تبني هذه اليقظة من قبل شعراء العصر جميعا بلغة لا يدعي احد انها جديدة ولكن ميدان نشاطها جديد .

وما كان بد وقد اخذ شعراؤنا الجدد على عواتقهم الافاضة في رسالتهم الجديدة التي هي رسالة القومية هذه في صميمها ان يتخذوا للتعبير عنها في اللغة العربية ـ كما بينت ـ اسلوبا جديدا . وما كان بد ان يضحوا في سبيل ذلك بكثير من المقومات الفنية التي لا يستقيم تقديرها وتذوقها لغير آذان العرب ـ وخاصة في مجال الموسيقى اللفظية التي يغلط بعضنا فيحسبها هي والموسيقى الشعرية شيئا واحدا ـ فذهبت اولا القافية الموحدة مفسحة الطريق الى تناوح القوافي ثم خفوتها اخيرا بالمرة . كما ذهبت بعد ذلك اوزان الخليل مخلية الدرب الى التلاعب الذي اصبح اجراؤه ممكنا بذهابها في تفاعيل هذه الاوازن .. وفي عدد هذه التفاعيل في السطر الواحد ـ ولا اقول البيت الواحد لان الشعر الحديث لا يعترف بوحدة البيت فهو الشيء الوحيد الذي لا يعترف بوحدته ـ قلت في السطر الواحد وما قد يلي هذا السطر او ذاك ـ بعده ـ من فقرات وسطور فيما يسمونه بنودا . كما ذهبت اكثر المحسنات البيانية التي كان تأثير صياغتها وسحرها وقفا على الذوق العربي الاصيل .

ما كان بد ان يقع كل هذا في سبيل تأدية رسالة الشعر في ميدانه الجديد ـ من مقومات فنية مسلم بها . والا اصبح مدسوس الرسالة باطلها . ومن هنا هذه المقومات المستحدثة التي اقتناها شعراؤنا ـ بالاقتباس ـ من خارج دنيا العرب فهم ينشدونها وقد يحققونها في وحدة اللون ووحدة الشعور ووحدة كل شيء .. ما عدا وحدة البيت طبعا . ولا غرو فهم يهدفون في كل ما يفعلون الى توحيد الانسانية جمعاء تحت راية وحدتهم المنشودة ... ولو كان مجالها الترجمة .

فاذا سألتموني الان : ما خطب هذا الشعر الجديد ؟ قلت ان «لوحته» ـ كما ارى ـ لطخات من الالوان تفيض على غير هدى تندمج كلها لتكون رمزا موحدا لا يستطيع القارىء ـ ولا اقول السامع لاسباب ظاهرة ـ ادراك ما يرمز اليه من تشخيص «الذاتية» المزدوجة الا باستيعاب اللوحة في نظرة كلية شاملة يفترض منه القاؤها من مسافة بعيدة لا تتحمل التدقيق والتجزئة .

بخلاف الشعر القديم فان « لوحته » ـ كما لا يخفى عليكم ـ خطوط وألوان مجمدة الدلالة على ما تصور . وربما اقتصرت اللوحة على الخطوط وحدها احيانا . او اكتفت بلون واحد احيانا يستجلي المرء في كل جزئياتها ـ اذا دقق النظر من قريب ـ ما تنبض به اللوحة من معنى التشخيص .

و « الذاتية » المزدوجة في كلا الحالين واحدة .

فالفرق الفني بينهما هو الفرق القائم في لوحة زيتية بين عملية ادماج الالوان في عفوية وذهول وبين تجميدها على اركان واصول . بيد ان الخلاف الحقيقي ـ ان صح ثمة خلاف ـ هو في الميدان الذي يعمل فيه الاثنان . فالشعر القديم وما يجري على غراره وينسج على منواله كان ميدانه مقصورا على دنيا العرب وحدها في حلهم وترحالهم ، بينما الشعر الحديث وسع هذا الميدان ليبلغ بصوته اسماع ابناء الارض قاطبة وذلك بطرائق فنية لا عهد للعرب بها من قبل مفروض فيها ان تستوعبها الترجمة حول يقظة الامم لتراثها الاصيل .

فهذا ما افهمه عندما ينشدني صديقي الشاعر نزار مثلا من سورية العزيزة قصيدته « من شاعر سوري الى مواطن اميركي » اي انه تتحول شعبيا . وتأملوا معي عنوان القصيدة فله دلالته الخاصة حول ما نحن بصدده .

ولنزار رأي في هذا الاتجاه الحديث يسرني ان اجد فيه تأييدا لما ذكرت . ففي حديث للشاعر نشرته « مجلة آخر ساعة » منذ شهر روى له المراسل الحصيف قوله :

« ان الشعر الحر هو اصعب الوان الفن لانه لا يعتمد ـ كالشعر القديم ـ على الايقاع والتناسب وتوازن اجزاء البيت والالاعيب البلاغية . انه كصور « بيكاسو » تأخذ جمالها من انعدام النسب واضطراب الخطوط وتداخل الظلال وموت المسافات في بعضها ... »

هذا ما يقوله نزار ومن اولى منه ـ شاعرنا المجدد ـ بابداء مثل هذا الرأي الصريح في شعره الجديد . وقد عللت لكم في كلمتي لم كان هذا هكذا .

وكما ترون سواء اعكف الشعراء بجوانحهم على اساليبنا القديمة ... ابقاء على التراث ام نزعوا بمشاعرهم الى الاسلوب الجديد ... تطورا مع الاحداث . فان الاصالة التي لا تقوم للشعر راية في مضمار الفنون بدونها ضرورية في كلا الحالين .

وقانا الله شر المقلدين .. وما اكثر المقلدين .. في الحالين !

ابراهيم العريض